

وهناك بعض صحف رسمية هي أقرب إلى الصواب في منشوراتها وإن كانت لا تسلم مما تقع فيه الجرائد الركيكة العبارة مثل قول إحداها: بأشديرية الرسومات وصل إلى مياه ثغرنا طريق شوسة للتحري على المزيين استلفت الأنظار القشلة الهمايونية دفتر الاغتراب مستنكات الروس رفع راية العصيان ضد طمعاً بنوال مقاصدهم الأمر الهام يحكم وهلة الرفاه والراحة بناءً عليه وتوفيقاً لأحكام والأحرى أن يقال: رئاسة مديرية الجمرك. بلغ ثغرنا. طريق مركبات أو معبدة. للبحث عن المزيين. لفت الأنظار أو وجه الأنظار. الشكنة السلطانية. سجل الغرباء. مستعمرات الروس. رفع راية العصيان على. طمعاً بنيل مقاصدهم. الأمر المهم أو الجلل. يحكم لأول وهلة. الرفاهية أو الرفاهة والراحة. عملاً بأحكام. أما تركيب بناء عليه وعليه وحيث أن فهي مولدة لا يعرفها العرب والأولى أن يستعاض عنها بتراكيب أخرى عربية.

تعليم النساء

وترجمة عليّة بنت المهدي العباسي

تمهيد

كان الخلفاء والأمراء وخاصة الناس في صدر الإسلام حتى القرن الخامس للهجرة من أحرص الناس على تذيب بناتهم وجواريهن وأمهات أولادهن ينفقون الأموال ويجهدون النفوس السنين الطوال في تثقيف عقولهن وتقويم فطرتهن بالترويض والتخريج والتدريس والتحصيل على أيدي ثقات أهل العلم وأئمة النحاة والرواة وأشهر الحفظة والجدوين فما منهن بعد أن يتسرسن على العفاف وحب الفضيلة من لا تحفظ القرآن العزيز وطرفاً من

أحكام الفقه والحديث ونقياً من علمي الأنساب والتاريخ فضلاً عن آداب اللغة وآثار السلف من شعراء ومحدثين وغزاة وخطباء وكتبة وأمراء فكان صدر كل فتاة من فتاتهم كترًا من أسمى الكنوز يصيب منه سميرها ما شاء من أدب وحكمة ونكتة وفكاهة فينجذب لها فؤاده وترع إليها عواطفه وتحل من نفسه محل الحرمة والتجئة والإعظام بمقدار ما يتوسمه فيها من مخايل الدراية والعقل وآثار النجابة والاختبار.

وما في ذلك من عجب بل العجب من النقيض وهيئات أن يخفى على أمثال المنصور والمهدي والرشيد والمأمون أن الحسن المادي مهما كان بارعاً رائعاً باهرًا فتاناً إذا لم يقترن بالحسن المعنوي ويشفع بالظرف الأدبي كانت صاحبه كالتمثال المنحوت والصورة المنقوشة بل أقل قيمة وأبعد جاذبية منعهما لأن التمثال والصورة معدودان من الجمادات فلا يتوقع منهما الإنسان رشاقة الحركة ولطف الإشارة وخفة الروح وحلاوة المعنى وسعة الدراية وحسن الرواية ولذلك يستحسنان ويروقان بأعين الناظرين بمقدار ما أودع فيهما من دقة الصناعة وتناسب الرسم وحسن التكوين وتشاكل الألوان بمعزل عن تلك المزايا. أما الفتاة ذات الجسم المتحرك والنفس الحية واللسان الناطق والخلق السوي العتيدة أن تكون زوجاً مؤانسة وأما مربية فتأبأها النفس ويعافها الذوق وينصرف عنها القلب وإن كانت جميلة وسيمة ما دامت جامدة كالصنم بكماء كالعجماء لا تفقه من أحوال الدنيا وأسرار الحياة وحقائق الكون وماهية ما يراد منها ومفروض عليها من سنن وواجب إلا ما كان مداره المطعم والمشرب وقوامه الملبس والمركب ومرجعه اللهو والقصف ونتيجته الحب والبعال فإذا عرض لها أمر يستوجب الإنباء وهو مما يحدث كل يوم قصرت في الأداء وتلكأت في الكلام وسعلت وتحنحت وتسامحت ما شاءت ولم تقو على الإفهام

وإن سئلت عن شيء أجابت بلا أدري أو هذرت بجواب لم يكن من لحمة السؤال ولا من سدها. فمن كانت على هذا الطرز وما عدد أمثالها عندنا بقليلٍ أحر بها أن تكون عند أذكىاء الرجال وأرباب الذوق والفضل ساقطة المترلة ساقطة القدر رخيصة القيمة تفضلها الشخوص وتمتاز عنها الصور لأن هذه تمتع الأعين بجمالها ولا تضر النفوس أما تلك فإنها تورث الكراهة وتمني بالضرر وتبلي المنازل خاصة واجتمع القومي عامة بأدواء من الهنوم والموبقات تذهب بالأهم إلى أقصى الدركات.

أجل وليس من ينكر أنك لتراها بادئ الأمر فتستحسنها لنقاء بشرتها وسواد حدقتها واعتدال قوامها وغضاضة جسدها وبضاضة وجلده والتفافه ثم تسمع كلامها الدال على جهلها وغياقتها المؤذن بقصر إدراكها وسذاجة قلبها وظلام ذاكرتها فزدرىها وتستهجنها وينبذها قلبك نبذ النواة وي طرحها ذكرك طرح القذاة لأنها لا تصلح للنؤانسة وترويح الهنوم ولا ترجى للاستشارة وتسديد الرأي ولا تنفع للأهومة بأتم معانيها وللتربية وتدبير المنازل بكل ما يراد من هذين الواجبين بحكم العقل والصواب ومن كان هذا شأنها كانت سخطاً على النوع الإنساني ونيراً ثقیلاً على عاتق الوجود وكل أمة تقلص ظل مجدها ونضب معين رخائها ونزفت مواد قواها وتقطعت أسباب منعها وعزتها وهنائها إنما نساؤها على تلك الشاكلة ولقد صدق من قال إن التي قهر السرير بيستها قهر العالم بيسراها.

فيا حبذا لو اقتدى كبارنا وأعظامنا بمن درجوا قبلهم من أساطين الأمة وسراة أعلامها وصرفوا العناية إلى تعليم أولئك اللواتي لا يسمين بحق أوانس إلا إذا كن بالفعل نزهة الجالس ولا يقال لمن عقائل ما لم يكن بالحقيقة أرباب علم وأدب وتهذيب وفضائل فإن

الناس على دين ملوكهم والعامّة تقتدي بأعيانها فلإن أحسن هؤلاء الابتداء أحسن الاقتداء والعكس بالعكس سنة الله في الخلق منذ حنت الحضارة محل البداوة وقام التهذيب مقام الفطرة وأصبح البشر درجات ومراتب وطبقات.

نقول هذا توطئة وتمهيداً لما نذكره الآن من ترجمة ابنة خليفة وأخت ثلاثة خلفاء وعمّة ثلاثة وهي (عليّة بنت المهدي) التي عني قومها بتعليمها وتأديبها وتنوير عقلها وتوسيع دائرة اختبارها حتى صارت آية الفضل ونايعة الأدب ومثال العفاف وعنوان الرقة والبلاغة في قرض الشعر الصحيح الأجزاء المتين التراكيب الرشيق المعاني تتفنن في أساليبه وتأخذ بأطرافه أخذاً يهر العقول ويفتن الألباب على كونها نشأة زهو وترف وغرسة صفو ونعيم. ومعلوم أن الملكة الشعرية لا تستحكم في فتاة إلى هذا الحد إلا بعد الإمعان والجد وإحياء وإحياء النياي الطوال تبحراً في علوم العرب وإتقاناً لفنون الأدب وتعناً في دراسة أشعار النابغين المجيدين من فحول الجاهلية والمخضرمين والمولدين وإلا لما قُمياً لها أن تحذوا حذوهم وتنسج على منوالهم وما تلك بالوحيدة بين أترابها في ذلك العصر الزاهر وما بعده بل يوجد كثيرات مثلها حتى بين الجوّاري القيان فضلاً عن حرائر الأنسات الحسان.

* * *

ولدت عليه حفيدة المنصور_ثاني خلفاء العباسيين_وبنت المهدي وأخت موسى الهادي وإبراهيم ابن المهدي وهارون الرشيد والعباسة وأسماء وعمّة الأمين والمأمون والمعتصم وصالح من سرية أم ولد تدعى مكنونة جارية المروانية وذلك سنة ١٦٠ للهجرة وأدركتها الوفاة نحو سنة ٢١٠ وقد ناهزت الخمسين على إثر حمى أصابتها وقد قال

بعض المؤرخين في سبب وفاهما أن ابن أخيها المأمون ضسها إليه طويلاً وجعل يقبل رأسها والنقاب مسدول على وجهها ففصت بريقها من شدة ما نالها من حبس أنفاسها ثم شرقت وسعلت فكان في ذلك حثفها.

قال أبو إسحق القيرواني في كتابه زهر الآداب كانت عليه لطيفة المعنى رقيقة الشعر حسنة مجاري الكلام رخيمة الصوت ولها ألحان حسان أحصاها أبو الفرج الصبهازي في كتابه فإذا هي ثلاثة وسبعون وكلها حسن مختار.

وقال النوفلي عنها أنها من أوضئ النساء وجهاً وأعدلن قواماً وأظرفهن كلاماً تقول الشعر المتين الجيد وتصوغ الألحان الحسنة وكان في جبينها أثر من شجة أو فضل سعة ينقص من محاسنها فاتخذت العصائب المكلفة بالجواهر تستر ذلك العيب فكان ما أحدثته خير ما ابتدعته النساء وقد وهم من قال أن أختها العباسة المبدعة لتلك العصائب فإن ذلك لم يقله أحد من ثقة المؤرخين.

وقال إبراهيم ابن إسماعيل الكاتب كانت عليه حسنة الدين لا تغني ولا تشرب إلا إذا كانت معتزلة الصلوة فإذا طهرت أقبلت على الصلاة وتلاوة الأوراد ومطالعة الكتب إلا أن يدعوها الخليفة إلى شيء فلا تقدر على خلافه وأطرب شيء إليها قول الشعر.

وكان أحد أحفاد الفضل بن الربيع وزير الرشيد يقول ما اجتمع في الإسلام أخ وأخت أحسن غناءً من إبراهيم بن المهدي وأخته عليّة وكانت أخته تقدم عليه.

حدث يوماً أبو أحمد بن الرشيد فقال: دخل في بعض الأيام المأمون إلى دار الحرم ودخلت معه فسبعت غناءً أذهل عقلي فلم أقدر أن أتقدم ولا أتأخر وفطن المأمون لما بي فضحك ثم قال: هذه عمتك عليه تطارح عمتك إبراهيم.

ما لي أرى الأبصار بي جافية ... لم تلتفت مني إلى ناحية

لا تنظر الناس إلى المبتي ... وإنما الناس مع العافية

وقد جفاني ظالماً سيدي ... فأدمعي منهلة واهية

والشعر والغناء لها ومن شهرها في أخيها الرشيد وقد دعتني إلى وليمة فلبى دعوتها:

تفديك أختك قد حبوت بنعمة ... لسنا نعدُّ لها الزمان عديلاً

إلا الخلود وذاك قربك سيدي ... لا زال قربك والبقاء طويلاً

وحدثت ربي في إجابة دعوتي ... فرأيت حمدي عند ذاك قليلاً

قال الراوي ما معناه: لما زارها الرشيد قال لها غنيني يا أختي فقال وحياتك لأعمن فيك شعراً ولأصوغن فيه لحناً ولأسمعنك به غناءً يطرب الشكلى ويرقص المقعد ويشجى المدنف ثم نظمت في وقتها الثلاثة أبيات التي ذكرناها وغنت بها في لحن جديد من خفيف الرمل فأطرب الرشيد كثيراً واستعادها إياه مرّات. ولها فيه أيضاً وقد دعا أختها العباسة إلى زيارته ولم يدعها:

ما لي تُسيت وقد نودي بأصحابي ... وكنت والذكر عندي رائح غاد

أنا التي لا أطيق الدهر فرقتكم ... فرق لي يا أخي من طول إبعادي

ولها في ابن أخيها الأمين وكانت لما مات الرشيد جزعت عليه جزعاً شديداً وتركت النهو والغناء فلم يزل بها الأمين حتى عاودتها وهي كارهة فقالت:

أطلت عاذلتي لومي وتفنيدي ... وأنت جاهلة شوقي وتسهيدي
لا تشرب الراح بين المسنعات وزر ... طيباً غريباً نقي الخلد والجيد
قد رنحته شمول فهو منجدل ... يحكي بوجنته ماء العناقيد
قام الأمين فأغني الناس كلهم ... فما فقير على حال بموجود
ولها في لبانة ابنة أخيها علي بن المهدي وكانت من حسان زمانها الفاتنات:
وحدثني عن مجلس كنت زينه ... رسول أمين والنساء شهود
فقلت له كَرّ الحديث الذي مضى ... وذكرك من بين الحدث أريد
وليس في شعرها هذا بشيء بجانب غزلياتها فإن لها من المقاطيع في ظل ورشا.
ومنها قولها في رشا وقد كنت عنه بزینب:

وجد الفؤاد بزینباً ... وجداً شديداً متعباً
أصبحت من كلني بها ... صباً كنيماً منصبا
ولقد كنت عن اسمها ... عنداً لكي لا تغضبا
وجعلت زينب سترَةً ... وكنيت أمراً معجباً
قال وقد عزّ الوصا ... ل ولم أجد لي مذهبا
والله لا نلت المودّ ... ة أو تنال الكوكبا
فلما اشتهر أنها تكني عن رشا بزینب قال وقد صحفت زينب بلفظة ريب:

القلب مشتاق إلى ريب ... يا ربما من هذا العيب
قد تيمت قلبي فلم أستطع ... إلا البكاء يا عالم الغيب
خبأت في شعري اسم الذي ... أرتبه كالخُبء في الجيب

وكانت لزبيدة زوجة الرشيد جارية اسمها طغيان وشت بها مرة إلى الرشيد فقالت عنية
فجوها وفيه مع أدب الكتاب أشد أنواع الدم وهو من مبتكراتها المأثورة:

لطغيان خف منذ ثلاثين حجة ... جديد فلا يبني ولا يتمزق

وكيف بنى خف الدهر وهو كله ... على قدميها في الهواء معلق

فما خرقت خفاً ولم تبل جورياً ... وأما (ثياب فوقه) فتمزق

ولما مات رشا أو قتل شبيت في ظل فقالت وقد صحفت اسمه في البيت الأول تلميحاً:

أيا سرورة البستان طال تشوقي ... فهل لي إلى ظل لديك سبيل

متى يلتقي من ليس يهوى وخروجه ... وليس لمن يهوى إليه الدخول

عسى الله أن نرتاح من كربة لنا ... فيلقى اغتباطاً خلة وخليل

ولها فيه أيضاً وقد جعلت التصحيف في البيت الثالث:

سلم على ذاك الغزال ... الأغيد الحسن الدلال

سلم عليه وقل له ... يا غل الباب الرجال

خليت جسسي ضاحياً ... وسكنت في ظل الجمال

وبنغت مني غايَةً ... لم أدر فيها ما احتيال

ثم صرحت بعد في أبيات آخر تستعطفه به وتهنه بالصدود والإعراض وهي قولها وهو
من أرق التشبيب:

يا رب إني قد عرضت بمجرها ... فأليك أشكر إذ ذاك يا رباها

مولاة سوء تستهين بعدها ... نعم الغلام وبنت المولاه

طل ولكني حرمت نعيمه ... ووصاله ما لم يغثنى الله

يا رب إن كانت حياتي هكذا ... ضراً عليّ فما أريد حياة
والذي أدبها وعلمها وخرجها فنون الشعر إنما هو عمرو أبو حفص الشطرنجي وقد نشأ
هذا في دار أبيها المهدي مع أولاد مواليه ثم انقطع بعد موت المهدي إلى عليّة هذه ولما
زوجت بموسى بن عيسى العباسي خرج معها إلى دار زوجها ولما عادت إلى القصر بموت
زوجها عاد معها وسمي شاعرهما وهو القائل عن لسانها لما غضب عليها الرشيد:
لو كان يمنع حسن العقل صاحبة ... من أن يكون لها ذنب إلى أحد
كانت عليّة أربي الناس كلهم ... من أن تكافأ بسوء آخر الأبد
ما أعجب الشيء نرجوه ونحرمه ... قد كنت أحسب أني قد ملأت يدي
فكانت أبياته هذه سبب رضى الرشيد عنها وإقباله عليها ومن أحسن الغزل وأرقه قولها:
يا عاذلي قد كنت قبالك عاذلاً ... حتى ابتليت فصرت صباً ذاهلاً
الحب أول ما يكون مجانّة ... فإذا تمكّن صار شغلاً شاغلاً
أرضى فيرضى قاتلي فتعجبوا ... يرضى القتل وليس يرضى القاتلا
وكان الرشيد قد استحلفها ألا تكن طلاً ولا تشب به في شعرها ولا تسميه فحلفت له
ثم همّ يوماً بالدخول إليها وإذا بها تقرأ في سورة البقرة وقد بلغت الآية فإن لم يصحبها وابل
فأطل وأرادت أن تقول فطل فقالت فالذي هي عنه أمير المؤمنين فضحك وقال لها ولا
كل هذا.

هكذا روى القيرواني أما الأصبهاني فقال أنه عندما سمع الرشيد منها ذلك وهبها الغلام
بعد أن قبل رأسها وقال لها لست أمتعك بعد اليوم من شيء تريدينه وعندنا أن الرواية
الأولى أدق إلى الصحة على ما عهد من غير الرشيد وأنفته كيف وهو الهاشمي الأبي

العزوف النفس ولقد روي عن لسان عليّة أنها قال لا غفر الله لي فاحشة ارتكبتها قط ولا أقول في شعري إلا عبثاً وهي التي تقول ما حرّم الله شيئاً إلا وقد جعل فيما حلال منه عوضاً فبأي شيء يحتج عاصيه وبالجملة لو لم يكن حبها للجمال مقصوداً على القيل والقال لما أكثرت من شعرها من ذكر الهجرة والوحشة والشوق فما نظمت بيتاً في التشبيب والغزل إلا كاد ينطق بعفتها وأدبها بغير لسان ويعرب عن نزاهتها وتصونها كأفصح ترجمان لأن النار لا تتبعث عن فؤاد أحمده الشهوات وأطفأت جذوته اللذات وما أحلى قولها تشكو وتتألم وهو من مهلهل الشعر:

نام عذالي ولم أتم ... واشتفى الواشون من سقمي

وإذا ما قلن بي ألم ... شك من أهواه في ألمي

ولو شئنا أن نأتي على جميع أخبارها ومنظوماتها وما ذكر الرواة من بدائعها ونكاتها لصاق بنا المقام وأدرك القارئ الملal فلم نرد بدأ من الاقتصار على ما أوردنا تبصرة للرجال وتذكرة لمن أغفلن العلم ولم يعتنين بالفضل من ربات الحجال خاتمين هذا الفصل بيتين لعليّة لا يخلوان من الحكمة والعبرة لمن يكثر الزيارة واللييب تغنيه الإشارة:

إني كثرت عليه في زيارته ... فمل الشيء مملول إذا كثرا

ورابني منه أي لا أزال أرى ... في طرفه قصراً عني إذا نظرا

سليم عنحوري

مذاهب الأعراب وفلاسفة الإسلام في الجن

تسمة ما ورد في الجزء الماضي

أقوال متقدمي فلاسفة الإسلام في الجن